المنهاجية الخلقية.. للشاعر المسلم

بقلم: محمد علي وهبة

يقول جل شأنه في كتابه العزيز:

﴿والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا..﴾(الشعراء: ٢٢٤: ٢٢٧).

وقد جاءت الآيات الكريمة المذكورة معطوفة على الآيات المباركة السابقة لها التي قال فيها جل شأنه:

﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين. تنزل على كل أفاك أثيم. يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾(الشعراء: ٢٢١: ٢٢٣).

أي أن الشعراء تنزل عليهم الشياطين، فيضلونهم عن سواء السبيل، ويضل معهم من يتبعهم، ثم استثنى الله سبحانه من الشعراء ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً﴾ أي ذكروا الله عز وعلا في شعرهم كثيراً.

وذكر الله تبارك وتعالى في الشعر لا يشترط أن يكون فقط بصورة مباشرة، وإنما وفقاً لفنون الشعر يكون كذلك بذكر عظمة الله في خلقه، وإبراز الإعجاز الجمالي المتسامي في الخلق الإلهي.

وقد جاء في تفسير ابن كثير في قوله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ (أن حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك قد أتوا رسول الله ﷺ، وهم يبكون. قالوا: قد علم الله سبحانه حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلا النبي ﷺ عليهم قوله سبحانه: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾(١).

■■ منهاج خلقي قويم:

وقد رسمت الآيات المباركة المذكورة المنهاج الخلقي القويم لشعراء الإسلام، ففي التزام الشاعر بالإيمان والعمل الصالح، وفي ذكره لله كثيراً في شعره من خلال ذكر عظمة الله سبحانه في خلقه، وفي انتصار الشاعر للإسلام بعد ظلم من خلال دفاعه بشعره عن الإسلام، والدعوة للدخول فيه بتوظيف جماليات وبدائع فنون الشعر في ذلك، وفي قيامه بالذود والدفاع عن الإسلام بهجاء من يعاديه، أو يمس حرماته بسوء بما للشعر من قدرة فائقة على الهجاء القاسي، الموجع الذي ينفذ إلى قلوب أعداء الإسلام كما تنطلق السهام من القوس، كما قال رسول الله ﷺ في ذلك: [إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل](رواه الإمام أحمد).

أي أن ما ترمون به أعداء الإسلام من شعر الهجاء، لكأنه السهام القاتلة.

ففي التزام الشاعر المسلم بالإيمان والعمل الصالح وفي ذكره لله كثيراً وكذلك في انتصاره للإسلام بشعره يكمن في هذه الأمور جماع الأخلاق المتسامية القويمة التي يجب أن يتحلى بها الشاعر المسلم، ليسمو بها شعره

سموا متعاظما يتناسب مع السمو المتعاظم لآيات كتاب الله العظيم.

■■ تخلق الشاعر المسلم بآداب حملة القرآن:

وفي كتابه (التبيان في آداب حملة القرآن) الذي يصف فيه آداب حملة القرآن بأنهم دعاة الإسلام، وحاملو رايته الخفاقة في العلا، والمدافعون عنه ضد أعدائه الباغين، يقول الإمام النووي: (من آداب حامل القرآن أن يكون على أكمل الأحوال، وأكرم الشمائل، وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى عنه القرآن إجلالاً للقرآن، وأن يكون مصونا عن دنيء الاكتساب، شريف النفس، مرتفعاً على الجبابرة الجفاة من أهل الدنيا، متواضعا للصالحين وأهل الخير والمساكين، وأن يكون متخشعاً، ذا سكينة ووقار)(٢).

وجماع هذه الأخلاق المتسامية على الشاعر المسلم، بوصفه داعية بشعره للإسلام، ومدافعا عن الإسلام، ولكي يسمو بشعره إلى ذلك المستوى الرفيع من أخلاق القرآن، يتوجب عليه أن يبقى ملتزماً دائماً بالآداب السامية لحملة القرآن.

■■ سمات خلقية متفرقة:

وفي كتابه (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) أورد ابن رشيق الأزدي قائمة مطولة رائعة من السمات الخلقية رفيعة المستوى، مما يجب أن يتحلى به الشاعر المسلم، ويتخذ منها منهاجيته الخلقية المتسامية في شعره.

من ذلك ما جاء في قول الحسن بن رشيق أن من حكم الشاعر أن يكون حلو الشمائل، حسن الأخلاق، طلق الوجه، بعيد الغور، مأمون الجانب، سهل الناحية، وطيء الأكناف، فإن ذلك مما يحببه إلى الناس، ويزينه في عيونهم، ويقربه إلى قلوبهم، وليكن مع ذلك شريف النفس، لطيف الحس، عزوف الهمة، نظيف البزة، أنفا، لتهابه العامة، ويدخل في جملة الخاصة، فلا تمجه أبصارهم، سمح اليدين، وإلا فهو كما قال ابن أبي فنن:

وإن أحق الناس باللوم شاعر
يلوم على البخل الرجال ويبخل

ويقول الأزدي في موضع آخر: (أول ما يحتاج إليه الشاعر ـ بعد الجد الذي هو الغاية، وفيه حد الكفاية ـ حسن التأتي والسياسة، وعلم مقاصد القول، فإن نسب ذل وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخل وأوجع، وإن فخرخب ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حسن ورجع، ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان، ليدخل إليه من بابه، ويداخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا)(٣).

وفي حاجة الشعر إلى الثقافة الموسوعية، كدعامة هامة للسمو بمنهاجيته الخلقية، يقول الأزدي: (والشاعر مأخوذ بكل علم، مطلوب بكل مكرمة، لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل: من نحو ولغة، وفقه وخبر، وحساب، وفريضة، واحتياج أكثر هذه العلوم إلى شهادته، وهو مكتف بذاته، مستغن عما سواه، لأنه قيد للأخبار، وتجديد للآثار).

ولعل في قوله أن (الشاعر مأخوذ بكل علم)، أي يتوجب أن يكون ذا ثقافة موسوعية شمولية، تشمل علوم الدين، وعلوم الأدب وما يرتبط بها من علوم الفلسفة والتاريخ وغيرها، وكذلك سائر العلوم الطبيعية والكونية، فهو أديب، والأديب كما قيل، هو من يمسك من كل خيط بطرف (من المعارف والعلوم).

كما يشير الأزدي بصفة خاصة إلى ضرورة التزام الشاعر بصفة دائمة بدراسة عروض الشعر وقوافيه وأوزانه وموسيقاه، وكل ما يتعلق بفنون كتابة الشعر، حتى يصل إلى مستوى المهارة الفائقة في استخدام آلاته والارتفاع بأدواته. ويشير كذلك إلى ضرورة أن يتفقد الشاعر شعره من آن إلى آخر، ليتناوله بالتنقيح، بالحذف والإضافة والتعديل، حتى يرتقي بإبداعه إلى أرفع مرتبة ممكنة قبل أن يعمد إلى نشر شعره وإذاعته على جمهور المتلقين والتابعين.

وبعد فإنه من جماع هذه الأخلاق المذكورة والكثير غيرها، مما يرتبط بها تتشكل المنهاجية الخلقية المتسامية للشاعر المسلم، وتنطبع بالتالي في شعره، ليأتي هذا الشعر متسما بالمنهاجية المتسامية نفسها المتوافقة تماماً مع سمو وارتفاع رسالة الإسلام.

■■ الهوامش:

١ ـ من تفسير ابن كثير في الآيات من ٢٢٤: ٢٢٧ من سورة الشعراء.

٢ ـ التبيان في آداب حملة القرآن لأبي زكريا يحيى بن شرف الدين النووي ـ ط . دار مروان ـ القاهرة ١٩٨١م.

٣ ـ (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده) ـ لأبي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي حققه وفصله وعلق على حواشيه محمد محيي الدين عبدالحميد ـ دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان ـ ط (٤) ـ ١٩٧٢م.